عمر كوش

نقد المركزيّة الغربية ـ ١ ـ

ميتافيزيقا التمركز على الذات

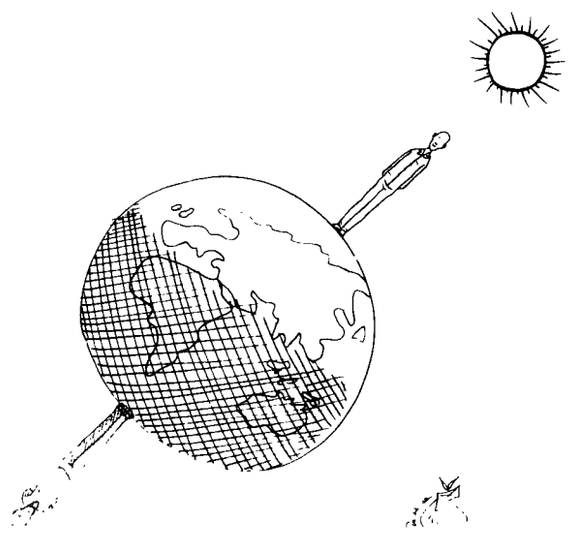

يعلّمنا التاريخُ أنّ جميع الأعراق البشريّة مؤهّلة للحضارة، وأنّ اختلاف الحضارات لا يعود إلى اختلاف الأجناس والأعراق، وإنّما يعود إلى جملةٍ من العوامل المتنوّعة والمتغايرة بتغاير الظروف التاريخيّة. وقد بَنَتْ شعوبٌ كثيرةٌ على الأرض حضاراتِها، فعاشت زمناً خاصاً بها، ورسمتْ لوحاتِها الخاصةَ على المسرح الإنسانيّ، وقد تَرجم التاريخُ حياةَ تلك الحضارات[1].

وبالرجوع إلى تاريخ الحضارات المقارن، نجد أنّ مختلف حضارات الإنسانيّة ادّعت أنّها مركزُ العالم، بناءً على تصوُّرات ميتافيزيقيّة محض. لكنّ درجاتِ هذا الادعاء الميتافيزيقيّ كانت مختلفةً باختلاف الحضارات وظروفها، وقد ارتبط ذلك إلى حدٍّ كبيرٍ بمدى اقتراب الفكر البشريّ من نمط التفكير الكونيّ الطبيعيّ أو ابتعاده عنه.

غير أنّ التمركز الذي حَدَثَ مع ما عُرف بالحضارة «الغربيّة» أَخَذَ أبعاداً خطيرة، لكونه تجلّى بتمركزٍ كليّانيٍّ على الذات، وُضعتْ فيه الذاتُ الغربيّةُ في قمة الهرم الكونيّ الذي اصطنعتْه، بعد أن أحيطت بتمركزاتٍ عديدةٍ تكثّفتْ فيها الرؤى على معطيات محددة، وقامت على ميتافيزيقا فلسفةِ الهوية والثبات والمطابقة، التي أعطت للذات طهرانيةً زائفة، والصقتْ بالآخر أبشعَ الصفات. ومن بين هذه التمركُزات:

ـ تمركزٌ لاهوتيٌّ، نَهَضَ على ميتافيزيقا يمتزج فيها فعلُ الإنسان بفعل اللّه، إلى حدٍّ أصبح فيه اللّهُ إنساناً منذ اللحظة التي حلّ فيها اللّهُ في جسد يسوع المسيح، واعتُبِر بمثابة الحلم الإلهيّ للذات المفكّرة، والرسالةِ الإلهيّة النابعة من روح الحقيقة. وقد حَمَلَ هذا التمركزُ البذورَ الأولى للتمركز على الذات.

ـ وتمركزٌ عقلانيٌّ، أو تمركز اللوغوص (logos)؛ وهو العقل الكليّ، الذاتيُّ المرجع، الذي يَحْكم العالَمَ، بوصفه المصدرَ الوحيدَ لكل معرفة. وقد تمادى فلاسفةُ الحداثة، من ديكارت إلى هيغل، في بناء الأطر الميتافيزيقيّة لهذا التمركز.

١ ـ أرنولد توينبي. في **المذاهب الكبرى في التاريخ**، تأليف البان ج. ويدجيري، ترجمة ذوقان قرقوط، ص ٣٢٥.

ـ وتمركزٌ صوتيٌّ، يَمْنح الكلامَ المباشرَ أسبقيةً وأفضليَّةً على الكتابة.

ـ وتمركزٌ ضوئيٌّ، أو شمسيٌّ، يَنْهض على استعارة الضوء والظلّ (الظهور والخفاء)، ويصوِّر تاريخَ الميتافيزيقا على أنَّه رسالةٌ أو دراسةٌ في الضوء، ويقدِّم الحقيقةَ بوصفها شمساً ساطعة[1].

هذه التمركزات، وسواها، ميَّزتْ كلَّ مذهبيات الفكر الميتافيزيقيّ الغربيّ ومنهجياته، ورسمتْ صورةَ التاريخ المفهومِ والمقروءِ ميتافيزيقياً، فإذا هي صورةٌ تهدف إلى إلغاء الآخرَ ومسخِه وتشويهِه. وغايةُ البحث الذي نسعى إليه هنا هي الوقوفُ على حيثيات هذه التمركزيَّة الغربيَّة وتفكيكُها، انطلاقاً من رفضنا للتمركزيَّة الغربيَّة وللتمركزيَّة المضادة لها أيضاً.

خطاب الميتافيزيقا: الذات/الآخر

أنتج الفكرُ الغربيُّ الحديثُ ومختلفُ فلسفاته، الماديَّة منها أو المثاليَّة، خطاباً ميتافيزيقياً، ارتَكَزَ على عددٍ من الأولويَّات والأسبقيَّات والأفضليَّات التي تُحيل الفكرَ إلى تقابلات ثنائيَّة تبدَّتْ على المستوى الحضاريّ في تقابل الغرب/الشرق، انطلاقاً من تقابل الذات/الآخر في علاقة رأسيَّة: ذاتٌ متعاليةٌ في حضورها، وآخرُ متوارٍ في غيابه.

تَفترض ثنائيَّةُ الذات/الآخر، التي لا تَعْمل إلا من خلال التناوب البسيط في ثنائيَّة الحضور/الغياب، أنَّ الآخر هو بالضرورة تالٍ أو ثانٍ بالنسبة إلى الأنا أو الذات. ولذلك جاء الكوجيتو الديكارتيُّ ليقول: أنا جَوهَرٌ مفكِّر، أيْ أنا فاعل لأنَّني أفكِّر. لكنه لم يقل مَنْ ذا الذي يؤسِّس هذا الادعاءَ للذات المفكِّرة «إذ لا شيء يؤسِّس ادّعاءَ الأنا هذه»[2]، ولا كيف سيتحدَّد وجودُ الذات «المتعالية» في الزمن: هل يتحدَّد كذاتٍ منفعلةٍ أم كأنا منفعلٍ وظاهريٍّ؟ ألا يتعلَّق الأمرُ بالذات الأخرى، لكون العالم مسكوناً بأنوات أخرى متعدِّدةٍ لها ذواتُها المتغايرةُ والمتمايزة؟ غير أنَّه لا يمكن اعتبارُ علاقة الذات بشكلها الميتافيزيقيّ الإطلاقيّ الذي كرَّسته الفلسفةُ الغربيَّة، إلاّ لأنَّ الفلسفة الغربيَّة كانت غائيةَ المرجع والتطلُّع. ففي حدود كون مفهوم «الآخر» هو مفهومَ الآخر الخاص بالنسبة إلى الأنا، فإنَّ الآخر ليس سوى الذاتِ الأخرى بالنسبة إلى ذاتي أنا، وهذا يَفْترض أن أكون أنا أيضاً آخرَ بالنسبة إلى ذات الآخر. أي إنَّ الذات لا يمكن أن تكون إلا عَبْرَذاتيةً؛ وعليه، فلا مكان لحضور مركزيةِ الذاتِ إلاَّ في أوهام الميتافيزيقا، وخارجَ مجال الشك، باعتبارها حاضرةً لنفسها في فعلِ تفكيرٍ، بينما يتعلَّق الأمر بتكثُّر الذوات في علاقاتها وحضورها المتبادل. فـ «الذات الغربيَّة» لم تكن عالماً ممكناً واقعياً إلا عندما كانت سوريا ومصرُ والصينُ والهندُ وإيرانُ واليونانُ وسواها محدَّدةً كعوالم محسوسة، وكتعبيرٍ عن عالم الممكن، لا في غيابها وتواريها الميتافيزيقيّ بل في وجودها المعبَّر عنه واقعياً. لكنّ خطاب الميتافيزيقا الخالي من الدلالة لا يعترف بذلك، لأنَّ فكرة «الكمال» تسيطر عليه، وتسعى الذاتُ المتمركزةُ إلى الوصول إليها، بوصفها شيئاً كاملاً ومنجَزاً بصورة مطلقة.

الغرب/أوروبا

بالنظر إلى تاريخ العالم الحضاريّ القديم لحوض البحر الأبيض المتوسط، نجد أنَّه غالباً ما كانت الدولُ والمدنُ تتحدَّد كأقاليم[3]. وَقْتَها لم يكن «الغربُ» مفهوماً، ولا أوروبا ولا آسيا آنذاك، وكان الخطُّ الفاصل بين أوروبا وآسيا مجردَ خطٍّ جغرافيّ وهميّ، إذ كان العالمُ الحضاريُّ القديم هو عالمَ البحر الأبيض المتوسط بمختلف شعوبه وحضاراته. لم يكن الغربُ، إذاً، سوى موضعٍ جغرافيّ، لا يتحدَّد كإقليم إلاَّ عندما تُشْرق الشمس[4]، أيْ كأن مجرد نقطة في الأفق تغيب فيها الشمسُ عن الأنظار. وفي نقطة الأفق تلك، كان للميتافيزيقا قوتُها وسطوتُها، وفيها تمّ اختراعُ الذات: فقد اكتشف الغربُ ذاتَه ووضَعَها في مركز العالم؛ فهو الذي لم يكن سوى نقطةٍ في الأفق راح يسعى إلى اجتياحِ الأفق بأكمله.

لقد حدث التقسيمُ الأفقيّ للعالم، وعليه سيبني الفكرُ الميتافيزيقيُّ لاحقاً سرديَّاته الكبرى التي ستكبر وتمتدّ مع الحداثة الغربيَّة، خاصةً في القرن التاسع عشر. وفي بؤرة هذا الفصل الأفقيّ: غرب/شرق، نَبَتَت الثنائيَّاتُ الميتافيزيقيَّةُ وترعرعتْ: نور/ظلام، حضور/غياب، أعلى/أسفل،... إلخ. ولم يَعُدِ العالَمُ واحداً: فالأرض هنا [بحسب هذه الثنائيَّات] ليست كالأرض هناك؛ هنا العطاءُ والخصوبة، وهناك الجدبُ والقحط؛ كما أنَّ البشر هنا ليسوا كالبشر هناك[5]. هكذا، تتقدَّم الذاتُ (أوروبا)، حاملةُ التاريخ وصانعتُه، على حساب تواري الآخر في ظلمته البربريَّة. وفي غمرة هذه السرديَّة الغربيَّة المتعالية، يقدِّم الغربُ ذاتَه أرضاً للوضوح والتحليل، ويتقدَّم الغربيُّ

---

١ ـ للتوسُّع، انظر J. Derrida: **L'écriture et la différence**, Paris, éd. Le Seuil, 1979.

٢ ـ جيل دولوز ـ فيليكس غتاري، **ما هي الفلسفة**، ترجمة ومراجعة مطاع صفدي وفريق مركز الإنماء القوميّ، مركز الإنماء القوميّ ـ المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٧، ص ٥٢

٣ ـ المصدر السابق، ص ٩٩.

٤ ـ جيرار ميريه **في تاريخ الايديولوجيات**، الجزء الثاني، بإشراف فرانسوا شاتليه، ترجمة د. أنطون حمصي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٧، ص ١٣

٥ ـ المصدر السابق، ص ١٤.

فكرة «نهاية التاريخ» تَكْشف مرةً أخرى طبيعةَ الرؤية الإثنية للتمركز على الذات الباحثة عن مُطلَقِها

صانعاً لحضارة «التفكير في العقل»، يَحْمل سلطةَ التمدين، ليعمِّد بها الآخرين إنِ استطاع ذلك؛ وعلى الشرق أن يبقى خارجياً بعيداً، يغطّ في أسراره الدنسة، من متخيَّلاتٍ وخلائطَ متعدِّدةٍ: فالنور في الغرب ترد عليه الظلمةُ في الشرق[1].

كان الغرب، إذاً، إقليماً في الأفق، مختلطاً أنّى ذهبنا بالشرق، لكنَّه أضحى مع «الحداثة» قوةً تَنْزع إلى امتلاك الأفق كله. ولئن لم يكن للذات تاريخٌ، فقد أضحت حاملةً للتاريخ، بل أضحت هي التاريخَ نفسَه ـ المقروءَ والمفهومَ والمكتوبَ ميتافيزيقياً. وبناءً على ذلك قَسَّمَ هيغل التاريخَ الكونيَّ، بعد أن رَبَطَه بالعقل، قسمةً احتلَّتْ فيها أوروبا الجرمانيةُ قمةَ الهَرَم في التاريخ الكونيّ، بوصفها تمثِّلُ التاريخَ في نضجه واكتماله، من حيث هو عقلٌ متحقِّقٌ في التاريخ؛ وأما الشرق بحسب هذه القسْمة فإنَّه لم يشهد سوى «طفولة التاريخ». فالتاريخ بَدَأَ من الشرق وانتهى في الغرب، كحركة الشمس التي تبدأ من الشرق لكنَّها تنتهي في الغرب. إنَّها فكرة «نهاية التاريخ» عينها التي بلغتْها أوروبا محققةً غائيتَه، وهي الفكرة التي يعيد ترديدَها بعضُ أنصار الرأسمالية في أيامنا هذه من منطلقٍ إيديولوجيٍّ وعلى أهازيج نشوة انتصار أوروبا الليبرالية. وتَكْشف هذه الدعاوى مرةً أخرى طبيعةَ الرؤية الإثنية للتمركز على الذات الباحثةِ عن مُطْلَقِها ومبدَئِها الكليّ.

لقد تأسَّس الغربُ إيديولوجيّاً كصيرورةٍ قابلةٍ للتعيين. لكنّ الصيرورة لم تأتِ من التاريخ، بل أنتجتْها الذاتُ المتمركزةُ حول نفسها، وتأسستْ معها الهويةُ والتصوراتُ الميتافيزيقية في العصور الوسطى على خلفيةِ لاهوت المسيحيَّة القادمة من الشرق، والتي جرى تغريبُها و«أَوْرَبَتُها». أي إنَّ العصور الوسطى هي التي صنعتْ من كلمة «الغرب» اسماً، وأعطته معنًى مسيحيّاً. لكنّ الغرب يَنْفر من اعتبار أصل الحضارة الغربيَّة هو القرون الوسطى. ولذلك بدأ البحثُ الميتافيزيقيُّ الذي لا يَكَلّ عن الأصل.

فالحداثة الغربيَّة، التي تأبى أن تخرج من رحم العصر الوسيط، لا بد لها أن تقفز من فوق العصور الوسطى، وتبحث عن نموذج يطابق ذاتها. وقد وجدتْ مبتغاها في النموذج الذي خَلَقَتْه عن العصر الإغريقيّ القديم. ويعود سببُ ذلك القفز التاريخيّ والجغرافيّ إلى كون المسيحيَّة القَرْوَسطية تجسِّد فكرَ الغرب، لكنَّها تقدِّم الذاتَ كمخلوقٍ لاهوتيٍّ؛ وفي هذا اختزالٌ لتعاليها. وأمّا الذاتُ الحديثةُ فتقدِّم ذاتَها بوصفها خالقةً ذاتَها بذاتها ولذاتها، ومن هنا ترفض الذاتُ المتعاليةُ الأنتروبولوجيا المسيحيَّةَ التي تحدّ من جموحها. إذاً، لا بدَّ من البحث عن أصلٍ آخرَ أفضلَ. ويبدو أنَّ الأنوار الحديثة قد وجدتْ ما يطابِقُ نموذجَها في الأنوار القديمة؛ وتلك هي إحدى مفارقات التاريخ: فأوروبا، التي لم تكن في العصور القديمة سوى إقليمٍ بربريٍّ، وجدتْ في تلك العصور ما يؤصِّل حضارتَها الحديثةَ.

اختراع اليونان

لقد تمّ اختراعُ اليونان ـ المعجزة وفقَ نموذج التأصيل الأوروبيّ الغربيّ الساعي إلى تجسيد وهم تمركزيَّة ذاته المتعالية، أي وفقَ ما تقتضيه ميتافيزيقا المطابقة. وتمَّت عمليةُ إعادة كتابة تاريخ الغرب باعتباره نتاجَ مميزاتِ الرجل الأبيض. كما أعيدت كتابةُ تاريخ اليونان القديمة، بوصفها الأ لَ المعرفيَّ والثقافيَّ والحضاريَّ لهذا الرجل، عبر عمليةِ د ومصادرةٍ لتراث الحضارة اليونانيَّة، أفضتْ إلى إزالة كلِّ ما يتَّصل بجذورها وامتداداتها المتوسطيَّة أو المشرقيَّة. ومُدَّتِ الروابطُ والجسورُ، القائمةُ على أوهام التمركزيَّة الأوروبيَّة الميتافيزيقيَّة، فوق الفواصل التاريخيَّة والجغرافيَّة والذهنيَّة، بين الحضارات الإغريقيَّة القديمة وحضارة الحداثة الأوروبيَّة، بغيةَ التأكيد المزعوم على وحدة الحضارة الغربيَّة[2]، انطلاقاً من ميتافيزيقا مبدإِ الوحدةِ والاستمراريَّةِ وأسطورةِ «فكرة التقدُّم المطرد».

لقد رسم الغربُ الحديثُ صورةً ميتافيزيقيَّةً للإغريق، متخيلةً وغيرَ واقعيَّة، تُظْهرهم شعباً عملاقاً، عقلانيّاً ومتفرِّداً ومتفوِّقاً في كل شيء: فهم أوَّلُ الفلاسفة، وأوَّلُ مَنْ فكّر في العقل، وأوَّلُ مَنْ سكن الكينونة... الخ. وبكلمة، خلق الغربُ «المعجزةَ اليونانيَّة».

لن نناقش مفهوم «المعجزة» المصطنع، لكونه لا يَصْمد عند الإحالة على صيرورة تكوين الثقافات والحضارات. لكنّ الحديث عن ريادة الإغريق الفلسفيَّة مبنيٌّ على اعتبار الفلسفة «ممارسةً للعقل الخالص». وفي رأينا أنّ هذا التعريف المتحيِّز والجزئيَّ للفلسفة يَحْرم الحضاراتِ الأخرى حقَّها في الفكر

---

١ ـ المصدر ذاته، ص ١٥.

٢ ـ جورج طرابيشي: **نظرية العقل**، دار الساقي، بيروت ١٩٩٦، ص ١٢١ ـ ١٦٩.

ذاتِه، ويَعْكس وثنيةَ العقل التي طالما نظَّرَتْ لها الميتافيزيقا الغربيَّةُ وفلسفتُها المتمركزةُ على الذات، حيث وُضِعَ العقلُ في حجرة التفلسف وأُقفل عليه، ورُفع إلى مرتبة المطلق، وصُوِّر كآلهةٍ تنير دربَ البشريَّة وتَقْشع غياهبَ الجهل وأطيافَ الخرافة؛ وقد ظهرتْ هذه الآلهة التي جهلتْها شعوبُ الأرض طويلاً «وتجسَّدتْ ذاتَ يوم، إبّان القرن السادس قبل الميلاد، في شعبٍ مختارٍ ـ هو الشعب الإغريقيُّ ـ تجسداً خارقاً»[١].

إنَّ تحديد وظيفة العقل بالتفلسف يعني حرمانَه باقي وظائفه ومهامه، ويعكس وثنيَّةَ الميتافيزيقا التي لا تَنْظر إلى العقل إلاَّ بوصفه محض متفلسِف. غير أنَّ امتياز العقل، الذي قدَّسته الفلسفةُ الغربيَّةُ، أَنْتج عقلاً أداتيّاً، أفضى إلى عقلانيَّةٍ تقنيَّةٍ «اصطناعيَّة» أثقلتْ كاهلَ إنسان «البعدِ الواحد» (حسب تعبير هربرت ماركوز) وخلقتْ نوعاً من العقل المستقيل أو الميت. ومع هذا العقل ينتفي أيُّ إمكانٍ للتواصل والاجتماع والتبادل والرأي، ونَصِلُ إلى ما يدعوه أدورنو بـ «الجدل السالب». ولذلك وجَّه الفلاسفة، بدءاً من نيتشه ووصولاً إلى ديريدا ودولوز وباتاي وفوكو وهابرماز وسواهم من فلاسفة الاختلاف والغيرية، نقداً جذريّاً للعقل المتمركِز على الذات وللميتافيزيقا المنتِجَةِ له، وبحثوا عن مخارجَ تمكِّنهم من الخروج من فلسفة الذات[٢].

إنَّ الفلسفة، بقدر ما تكون فلسفةَ عقلٍ، هي أيضاً فلسفةُ روح، أو فلسفةُ لغةٍ، أو فلسفةُ نصٍ، أو فلسفةُ تربيةٍ سياسيَّةٍ ـ مدنيَّةٍ... الخ. وتَشْهد على ذلك فلسفاتُ الإنسانيَّة المختلفة: المصريَّة والهنديَّة والصينيَّة واليونانيَّة والإسلاميَّة وغيرها.. هذا إذا قرأنا التاريخَ الحضاريَّ بعيداً عن ميتافيزيقا «الأفضلِ» و«الأوَّلِ» و«الأصل».

ويُرجِع معظمُ فلاسفة الغرب الفلسفةَ إلى أصلٍ إغريقيٍّ، معتبرين ذلك الأصلَ نقطةَ انطلاقٍ لتاريخٍ خاصٍّ بالغرب وحده. وهذا ما ذَهَبَ اليه هيغل عندما رَبَطَ مصيرَ الفلسفة بأوروبا الجرمانيَّة، وادَّعى أنَّ الإغريق هُمْ أوَّلُ مَنْ تناول الموضوعَ في علاقته مع الذات. ثم أعاد إنتاجَ ذلك هيدغر، حيث رَبَطَ ذلك المصيرَ بالاشتراكيَّة القوميَّة أو بالأحرى بالنازيَّة، واعتَبَرَ أنّ خاصيَّة الإغريق هي في سكن «الكينونة» وامتلاكهم لهذه الكلمة. فقد قال بارمنيدس: «إنَّ الكينونة تكون»، وأجاب هيراقليطس: «إنَّ الكينونة تصير»[٣]، ولذلك يقرر هيدغر: «أنَّ الفلسفة هي بمثابة شيء يحدِّدُ، أولَ ما يحدِّد، وجودَ العالم اليونانيّ... إنَّ القول بأنَّ الفلسفة يونانيَّةُ الجوهر لا يعني شيئاً أكثر من القول إنَّ للغرب ولأوروبا، ولهما وحدهما فقط، مسيرةً تاريخيَّةً فلسفيَّةَ الأصل»[٤].

هكذا يَرْبط كلٌّ منْ هيغل وهيدغر الفلسفةَ بالإقليم اليونانيّ والأرضِ الغربيَّة (ذات ـ كينونة)، وكأنَّ التاريخ وفْق فهمهما الميتافيزيقيّ شكلٌ من أشكال الباطنيَّة[٥]، بعد أن نَزَعوا عنه مجموعَ شروطه لصالح عقيدة الأصول. وبذلك لا يخرج كلٌّ من هيغل وهيدغر عن منطق التاريخانيَّة والغائية، وتَسْقط الصيرورةُ (في حساباتِ كلٍّ منهما، وفي حسابات سواهما ممن ساروا على درب عقيدة التمركز على الذات) في التاريخ. غير أنَّ الحق هو أنّ كلَّ ما يفيده التاريخُ اليومَ، كما يقول دولوز، هو مجموع الشروط : فإذا «كانت الفلسفةُ قد ظهرتْ في اليونان فذلك جاء نتيجةَ احتمالٍ بدلَ ضرورة، ونتيجةَ محيطٍ أو وسطٍ بدلَ أصل، ونتيجةَ صيرورةٍ أكثرَ مما هو نتيجةُ تاريخ، ونتيجةَ جغرافيا بدلاً من تأريخ مرحلةٍ، ونتيجةَ نعمةٍ بدلاً من طبيعة»[٦].

إنَّ كلمة «أصل» تشير إلى نقطة انطلاق الشيء، ولكنْ لن تكون له أيةُ أهمية بمجرد الابتداء. وتقوم بنيةُ الميتافيزيقا على التأكيد على وحدة الأصل وهويته وتطابقه: فالميتافيزيقا الأفلاطونيَّة لا تؤكِّد التمييزَ بين عالم المُثُل وعالمِ المحسوسات، بين النماذج والنسخ فقط ، بل تقف عند النسخ ذاتِها لإظهارِ ما ينتسب منها إلى الأصل وما لا يمتّ إليه بصلة[٧].

ليست اليونانُ أولَ الحضارات الإنسانيَّة، وليست أصلاً وحيداً لغيرها. فالأصل ليس واحداً في شيء، لكونه غيرَ متطابق، خصوصاً في التاريخ، لأنَّ كل أصل يحيلنا على أصول أخرى. والأجدى البحثُ عن الأصالة في ضوء علاقة النسبيّ والممكن والمحتمل، إذ من غير الممكن الحديثُ عن الأول والبداية الأولى إلاّ بإلغاء الآخر. والحق أنّ مثل هذا الحديث يشكِّل أهمَ مقولات ميتافيزيقا التمركزيَّة على الذات، التي تركِّز على الفيلسوف الأول، وعلى أوَّلِ مَنْ قال بفكرة «اللوغوس»،... الخ، وكأنَّ الدلالة والقيمة تتجلَّيان في الظهور الأول المنشود لأيّ شيءٍ كان.

ويتبادر إلى الذهن في هذا المجال أسئلةٌ عديدة، منها: ماذا وَجَدَ الغربُ في اليونان القديمة كي يؤصِّل حضارتَه الحديثة عليها؟ هل وَجَدَ فيها ماضياً عريقاً لأبوَّةٍ متخيلةٍ، أم

---

١ ـ جان پيير فرنان: **بين الأسطورة والسياسة**، ترجمة د. جمال شحيِّد، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٩، ص ٦٦.

٢ ـ J. Habermas: **Le discours philosophique de la modernité**, Gallimard, 1999, p. 169- 196.

٣ ـ مارتن هيدغر: «نصوص نسيان الكينونة»، مجلة **العرب والفكر العالمي**، العدد الرابع، خريف ١٩٨٨، ص ١١.

٤ ـ المصدر السابق، ص ٢٤.

٥ ـ دولوز، ص ١٠٨.

٦ ـ المصدر السابق، ص ١٠٩.

٧ ـ G. Deleuze: **Logique du sens**, U.G.E. Minuit, Paris, p 350.

أعاد الغربُ كتابةَ تاريخ اليونان القديمة بعد إزالة كلِّ ما يتصل بجذورها المتوسطيَّة أو المشرقيَّة

ميتافيزيقا أقربَ إلى ميتافيزيقا تمركزه الكلياني؟ وهل وجدتِ الميتافيزيقا الغربيَّةُ أصلَها المنشود في ميتافيزيقا الإغريق، أم كان الحدثُ الميتافيزيقيُّ في تاريخ الغرب كالليل الذي غابت عنه الآلهة؟ أهي عودة الإله ديونيزيوس؟

إنّ بذور التمركز الاثنيّ نجدها في بعض نصوص فلاسفة الإغريق وخطبائهم. فالخطيب الأثيني إيسوكراتيس يقول: «إنّ مدينتنا [أثينا] سبقتْ، حتى الآن، بقيةَ الجنس البشريّ في الفكر والكلمة، بحيث أصبح تلاميذُها معلِّمين لبقية العالم»[١]. أما أفلاطون الذي أَلْصق بالنفس ثلاثَ قوى: عاقلةً وغضبيَّةً وشهويَّةً، فقد قسّم ـ بناءً على ذلك ـ الأممَ والشعوبَ إلى ثلاثة أقسام: شعوب تمتاز بسيطرة القوة العاقلة على بقيّة القوى، وخَصَّ هذه الفضيلة بالشعب اليونانيّ؛ وشعوب تمتاز بسيطرة القوّة الغضبيَّة، وهم الشماليُّون (الأوروبيُّون)؛ وشعوب تمتاز بسيادة القوة الشهويّة، وهم الفينيقيون والمصريُّون[٢]. كذلك قسَّم أرسطو الشعوبَ والأممَ في كتابه **السياسة** إلى ثلاثة أجناس بناءً على الظروف المناخية والجغرافية: فالشعوبُ التي تَقْطن المناطقَ الباردةَ (الأوروبيُّون) «يتَّصفون بالشجاعة، لكنَّهم منحطّون في الذكاء والصناعة»؛ والشعوبُ الآسيوية «تتّصف بالذكاء والمهارة، لكنَّها بلا شجاعة»، ولهذا تبقى في حالة تبعيةٍ واستبعادٍ مؤبد؛ أما الجنسُ اليونانيُّ «الذي هو بحُكْم الوضع الجغرافيّ يَجْمع بين كيوف الفريقين»، «فهو ذكيّ وشَجاع، وجديرٌ بأن يَفْتح العالم»[٣]. ونظرية الكيوف الطبيعيّة هذه، التي تُنسَبُ إلى أرسطو، اتكأتْ عليها التمركزيَّةُ الاثنيَّةُ الغربيَّةُ، وغيَّرتْ مقاصدَها، وأخضعتْها لإكراهاتٍ «عمَّقتْ نزعةَ التفاضل التي قال بها أرسطو»[٤].

والحقّ أنّ الشعور بالتفوُّق الإغريقيّ، الذي نادى به بعضُ الإغريق على أساس الموقع الجغرافيّ لبلادهم، اقترن في الوقت ذاته «باحترامٍ حقيقيٍّ وفعليٍّ كان يكنّه الإغريقُ للثقافات الأجنبيَّة، وبخاصةٍ تلك التي قامت في مصر وفينيقية وبلاد الرافدين»[٥]. ولا يقارَنُ ذلك الشعورُ من جهة بالتمركز الكلياني الغربيّ على الذات من جهة أخرى؛ وهو تمركُزٌ بَلَغَ حداً عنصريّاً اعتُبِرَتْ فيه الحضارةُ الغربيَّةُ قائمةً على النقاء العنصريّ للرجل الأبيض. وهكذا جرى خلقُ بدايةِ تأسيسٍ ميتافيزيقيٍّ لحضارة الذات الغربيَّة الحديثة في الحضارة اليونانيَّة، التي جُعلتْ نقيَّةً وعملاقةً، تتناسب مع طبيعة ميتافيزيقا الذات، وتساعد على منح الثقة للذات في حضورها المتعالي، وفي الوقت ذاته تعزِّز هيمنتَها على الحاضر.

اليونان/أثينا

كان لليونان القديمة بنيةٌ مشظَّاةٌ، تمتدّ على شبهِ جزيرةٍ يحتضنها البحرُ، وعاشت على تخوم الإمبراطوريَّات القديمة، المصريَّةِ والفينيقيَّةِ والفارسيَّةِ وغيرِها، ونَهَلَتْ من حضارات البحر الأبيض المتوسط القديمة، وتحاورتْ معها عبر تاريخها الطويل، في التجارة التي اشتهرت بها المدنُ اليونانيَّة، وفي الحروب والاستيطان والاستعمار[٦]. ولقد شكَّلت المدنُ اليونانيَّةُ، بتعبير دولوز، «وسطاً من المحايثة»، جَذَبَتْ إليها ـ شأنها في ذلك شأن غيرها من المدن الحضريَّة القديمة ـ التجارَ والحرفيِّين الأجانبَ والفارين من الإمبراطوريَّات، وكذلك الفلاسفة. يقول نيتشه: «تصور أنّ الفيلسوف مهاجرٌ يأتي عند الإغريق؛ هذا هو حال الفلاسفة السابقين على أفلاطون»[٧]. إذاً، وبعيداً عن ميتافيزيقا التمركزية، لم تكن الفلسفة يونانيَّةً إلا بقدر ما كان الفلاسفةُ أجانبَ[٨]. ولقد حاز الإغريقُ خصائصَ اجتماعيَّةً وتاريخيَّةً وجغرافيَّةً مكّنتْهم من تقديم حضارتهم، التي شاءت الظروفُ التاريخيَّةُ أن تستمرّ تأثيراتُها طويلاً. فقد استطاع مجتمعُ الإغريق «الأهليّ» لا «الأصليّ» أن يتمثَّل مع منجزات مختلف الحضارات السابقة عليه وأن يتحاور ويتفاعل معها، فأنتج حضارتَه الخاصة المتميِّزة في تاريخ الإنسانيَّة. □

حلب

---

١ ـ مارتن برنال: **أثينة السوداء، الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق**، ترجمة عدد من المترجمين، المشروع القوميّ للترجمة، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٢١١.

٢ ـ **موسوعة الفلسفة**، ج ١، المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٨٠.

٣ ـ أرسطو: **السياسة**، ترجمة أحمد لطفي السيد، الهيئة المصريَّة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٥٥.

٤ ـ عبد الله إبراهيم: **المطابقة والاختلاف: المركزية الأوروبيَّة**، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت ـ الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص ٢٣٤.

٥ ـ مارتن برنال، ص ١١٢.

٦ ـ المصدر السابق.

٧ ـ Nietzshe: **La naissance de philosophie à l'époque de la tragédie grecque**, trad. Génévieve Banquis, éd. Gallimard, Paris, 1969, p. 106.

٨ ـ دولوز، ص ١٠١.